الفصل العاشر

نقطة التحول

الحل الحقيقي

لقد أوضح لنا الفصل السابق أن أحاديث رسول الله ﷺ بخصوص مصر أدت إلى إدراك نور الدين محمود للمكانة التي أرادها الله سبحانه وتعالى لهذا البلد. وبالتالي، تيقن ذلك القائد المؤمن بربه وبرسوله أن توحيد الشام ومصر سيعود بالفائدة على الأمة الإسلامية سياسيا واقتصاديا وعسكريا. وذلك مجرد مثال بسيط يبرهن على مدى النجاح والفلاح الذي يقابل كل من أقبل على اتباع هدى الرسول الكريم ﷺ. ومن ثم يجدر بنا إحياء السنن النبوية بقدر الإمكان، فكلما اقتربنا من المنهج النبوي كلما دنونا من الحل الحقيقي لكثير من مشاكلنا على مستوى الفرد والأمة.

البابين

في الواقع، يروى التاريخ أن خيانات شاور المتكررة وغدره المستمر أدت إلى تأزم الموقف الذي كان يواجهه جيش أسد الدين شيركوه. وبالفعل، وصلت الأخبار في ذلك الوقت أن القوات القادمة من بيت المقدس يصل عددها إلى ثلاثين ألف مقاتل صليبي لاحتلال مصر. وهكذا وقف أسد الدين شيركوه موقف المدافع عن جيشه وعن البلد الذي يعشقه وهو مصر. وكان لا بد إذن أن يبدأ بتأمين الجند

الذين قدموا معه فبعث إلى شاور بغرض التفاوض معه، ولكن الأخير امتنع عن التفاهم وأبدى كافة صنوف الغدر إذ أن همه الأول والأخير كان طمعه في الحفاظ على منصبه دون النظر إلى مصلحة البلاد والأمة. وبناء عليه، وجد أسد الدين شيركوه أن موقع جيشه بأطفيح غير مناسب من الناحية العسكرية لأنه من السهل محاصرته بواسطة الجيش المعادى. ولذلك بدأ ينسحب إلى الصعيد وأرسل مستطلعيه لاختيار أفضل موقع لخوض المعركة المنتظرة. وجاءه الرد ممن أرسلهم أن خير مكان للتمركز فيه يقع بالقرب من المنيا واسمه "البابين" لتميزه باتساع شديد وعدم إحاطته بالجبال مما يسهل عمليات الكر والفر. وفى الوقت الذي اقترب فيه أسد الدين من "البابين"، صعد أموري من ضغوطه وتحرشه بجيش أسد الدين طوال فترة انسحابه من أطفيح، غير أن الجيش النورى وصل إلى "البابين" سالما.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣].

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو "هل كان أسد الدين شيركوه على استعداد أن يجازف بألفي جندي أمام جيش قوامه ثلاثون ألف، خاصة أن هؤلاء الجند كانوا يعتقدون أنهم في مهمة لتحصيل المبالغ والعودة دون خوض أية مواجهات عسكرية؟". وبناء على ذلك ، كان الرأي الغالب لقادة جيش أسد الدين يميل إلى ضرورة الانسحاب وعدم مواجهة العدو عسكريا. بل إن البعض تساءل عن جدوى القتال دفاعا عن شعب مصر، وعن خطورة خوض معركة محسومة مقدما لصالح الأعداء. وكان من أنصار الانسحاب كل من قطب الدين ينال، وعين الدولة ياروقى، وشهاب الدين الحريمى خال صلاح الدين الأيوبي، وكلهم من كبار الأمراء النوريين. وقد تذرع هؤلاء القادة بعدة أعذار مثل عدم تصريح نور الدين محمود لهم بالقتال، وعدم وجود احتمال لوصول مدد من نور الدين محمود، وعدم وجود قوات قريبة تستطيع الاشتراك بجانبهم في القتال. وبالتالي، كان الرأي السائد للسابقين من قادة الجيش يقضى بالانسحاب إلى الصحراء الشرقية ثم العودة

إلى الشام وطرح الموضوع أمام نور الدين محمود ليأخذ قرارا بشأنه. ولأن الإسلام يأخذ دائما بالصدق وليس بالسبق، فإذا بأصغر القادة سنا، وهو شرف الدين برغش، يقف موقف الرجولة والشرف لما كان يتمتع به من قوة شخصية وحماس ويقين وتوكل على الله تبارك وتعالى بأن النصر لابد قادم، مصداقا لقول الله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد].

فقد كان شرف الدين برغش يرى أن قلوب وعقول أغلب الحاضرين لذلك الاجتماع متجهة تماما إلى الدنيا وأسبابها التي تجعل من كثرة العدد والعدة عنصر الحسم والإفضاء إلى انتصار الأعداء المتمتعين بتلك الأسباب الدنيوية. ولكن في الحقيقة، فإن الأمر مختلف عن ذلك تماما لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي وضع كل الأسباب وهو القادر على أن يحولها من نعمة إلى نقمة أو العكس بمشيئته إذ يقول في كتابه الحكيم:

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس].

ولذا فإن شرف الدين كان متيقنا أن للمسلمين سلاحهم الإستراتيجي الماضي في كل زمان ومكان ما إن أخذوا به، ألا وهو الإيمان بالله تبارك وتعالى قولا وفعلا! ولذلك خرجت من شفاه شرف الدين برغش كلمات مثل تلك التي قالها عبد الله ابن رواحة يوم سرية مؤتة في عصر رسول الله ﷺ، إذ قال لجموع الحاضرين: "يا أمراء الدولة النورية، ما كنا نقاتل يوما في هذا الجيش لنور الدين محمود أو عماد الدين زنكي، وإنما كنا نقاتل لله رب العالمين. إن التي تكرهون هي التي خرجتم تطلبون منذ أن انضممتم إلى صفوف جيش الدولة النورية والذي تشرفتم بانتمائكم إليه. ولقد خرجتم إما لنصر يأتي بالعزة وإما لشهادة التي توجب حياة أبدية في رغد

العيش. لم تخشون النصر؟ ولم تخشون الشهادة؟ فوالله الذي لا إله إلا هو لو بقيت وحدي أنا وأسد الدين شيركوه لقاتلنا هؤلاء باسم الله وفى سبيل الله".

وبالطبع كانت لكلمات شرف الدين برغش تأثيرها الفعال على الحاضرين جميعهم، فأيد كل من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي ما قاله شرف الدين، وكذلك بدأت قلوب وعقول الآخرين تتغير عما كانت عليه من تمسك بالدنيا وأسبابها، حتى إن الرأي الأخير كان لصالح المواجهة والقتال.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة].

واتخذ القرار بأن يبدأ هجوم جيش أسد الدين مع أول شعاع من فجر اليوم التالي. ولكن كان ينبغي بطبيعة الحال الإعداد المحكم للمعركة عملا بالآية الكريمة:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

وبما أن عدد المقاتلين المسلمين كان لا يتعدى الألفين، فلا بد إذن من أن يتم توزيعهم التوزيع الأمثل بما يتفق مع ذكاء وحيلة أسد الدين. ونظرا لسابق المواجهات العسكرية ضد أمورى ولمعرفته بأسلوب أسد الدين الذي يقضى بتواجده شخصيا على رأس الجند المتمركزين في قلب الجيش، أراد أسد الدين تغيير أسلوبه ليحدث مفاجأة تربك صفوف الأعداء وتحقق له النصر بإذن الله العلى القدير. وكان أسد الدين يعلم أن الصليبيين لا يهاجمون بكل صفوفهم دفعة واحدة، وإنما يدفعون بجزء من الجيش ويريحون الجزء الآخر. ولذلك قرر أن يغير من خططه التي اعتاد تنفيذها أثناء المعارك. ولذا فكر في أن يجذب مقدمة الجيش الصليبي للأمام حتى تبعد عن المؤخرة وذلك بأن يدفعها للتعامل مع قلب الجيش

المسلم، وفى نفس الوقت يكون أسد الدين قد التف حول مقدمة الصليبيين فيأتي إليهم من الخلف ليضعهم في كمين بينه من الخلف، وبين قلب جيشه الذي يواجههم من الأمام. وبما أن دور كل من الجزأين الأمامي والخلفي للجيش النورى كان في غاية الأهمية حتى يتم تنفيذ الخطة الموضوعة وتحقيق النصر، فقرر أسد الدين أن يقود بنفسه الجزء الخلفى، وبقى تحديد قائد القوات الأمامية. وبما أن مواجهة العدو من الأمام كانت تتطلب قدراً كبيراً من الجسارة والتعامل معه بشدة، فقد أسند تلك المهمة الدقيقة إلى صلاح الدين الأيوبي لسابق علمه بقدرات ابن أخيه ولثقته فيه. وكانت بالفعل هذه أول مواجهة لصلاح الدين وفرصته ليبرز الخبرات التي تعلمها من أسد الدين. وبدأ صلاح الدين بالفعل في مناوشة مقدمة الجيش الصليبي وسحبه إلى الأمام ليبعده عن المؤخرة الصليبية. وفى اللحظة الحاسمة، انقض أسد الدين على الصليبيين من خلفهم ليشتت جيش أمورى ويحقق الانتصار في أقل من ساعات! سبحان الله العلى العظيم ... استطاع ألفان من المؤمنين أن ينتصروا على ثلاثين ألفا من أعدائهم بفضل توكلهم على الله تبارك وتعالى حق توكله بما أبدوه من حسن تخطيط وتنفيذ لمقدرات المعركة.

بدر ... تعود من جديد

وبذلك كان الإيمان بالله هو السلاح الماضي إلى يوم الدين لتحقيق النصر للمؤمنين على أعدائهم. فالقادر هو الله، والرازق هو الله، والناصر هو الله، والمعز هو الله، والمذل هو الله. وبالطبع كل هذه الحقائق لا يمكن الجدال فيها بأي وسيلة حتى وإن كانت جذابة مثل الأفلام السينمائية التي تزيف وقائع الأمور. ويبقى تأثير تلك الحقائق على القلوب حتى تخرجها من ماديات الحياة الدنيا التي يتحكم فيها المولى العلى القدير ويقلبها كيفما شاء. وبعد الانتصار الذي تحقق، قام الجند المسلمون ليلا ليشكروا الله تبارك وتعالى على نصره لهم، فمنهم من قرأ سورة التوبة،

ومنهم من قرأ الأنفال. ومنهم من شعر بأن الملائكة كانت تقاتل معهم كما قاتلت من قبل في "بدر"!

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب].

بعد انتهاء معركة البابين بانتصار المسلمين، أخذ أمورى يستجمع قواته المشتتة. وبدلا من أن يرضخ شاور لصوت الحق والعدل ويعطى لأسد الدين الأموال التي تم الاتفاق عليها منذ أكثر من أربع سنوات مضت، فإذا به ينضم بما أوتى له من جند إلى جيش أمورى. والأمر الذي يدعو للاشمئزاز أن شاور اتفق مع أمورى إلى زيادة ما يعطيه له إلى ألف ألف دينار ذهبية، أعطى له منها بالفعل ثمانمائة ألف، في مقابل أن يساعده الأمير الصليبي على القضاء على جيش أسد الدين شيركوه، في حين أنه رفض إعطاء أخيه المسلم أسد الدين شيركوه الخمسين ألف دينار الذي كان قد اتفق عليها معه مقابل مساعدته لاسترداد شاور الوزارة من ضرغام. وكان وما زال العذر الواهي الذي يتبجح به كل من سولت له نفسه خيانة أخيه المسلم، أمس واليوم أيضا، يتمثل في تلك الكلمة البغيضة "السياسة". ولكن العلاقة الحقيقية التي ينبغي للمسلم أن يقيمها وأن يتمسك بها هي علاقته بالله سبحانه وتعالى.

فى تلك اللحظة، كان أهل الإسكندرية في شوق للجيش النورى فدعاهم قاضى الإسكندرية وفتح الأبواب لصلاح الدين الذي دخلها مع جنده انتظارا لقدوم أسد الدين من الصعيد. وفى الواقع، كان أسد الدين قد ظل بالصعيد ليجمع المؤن للجيش حتى يستطيع العودة إلى الشام. وبدأ بالفعل تحالف قوات أمورى وشاور في محاصرة صلاح الدين الأيوبي في غياب أسد الدين شيركوه في الصعيد، وذلك لمدة أربعة أشهر كاملة. وكان صلاح الدين هو القائد الذي شاء الله أن يختبره بذلك الابتلاء الشديد ليكون الجزاء فيما بعد خير جزاء. فكان صلاح الدين هو

الذي تحمل عبء ذلك الحصار المرير بفضل يقينه وتوكله على المولى العلى القدير ورغبته في بلوغ الفردوس الأعلى من الجنة. ورغم أنه لم يكد ينتهي من معركة "البابين"، إلا أنه كان يعلم أن الجنة حفت بالمكاره، ولذلك أصبح لزاما على الفرد المسلم أن يتبع الطريق القويم بما يعنيه ذلك من إقبال على الطاعات مثل الالتزام بالفرائض والإكثار من النوافل، والبعد عن المعاصي من غيبة وأكل مال الآخرين والنظر إلى المحرمات وغيرها. أما من ابتغى عرض الحياة الدنيا فمأواه النار وبئس المصير. ومن المهم التأكيد على أهمية العمل بكلام الخير وليس الاستماع إليه أو قراءته فقط. وعلى سبيل المثال، فإنه من السهل التحدث عن مفاهيم الجهاد والتضحية والبذل والعطاء والأخلاق والقيم، ولكن الصعب هو التنفيذ الذي يحتاج لجهد متواصل في سبيل الوصول إليه. وقد تعلم صلاح الدين من موقعة البابين أن القول غير الفعل، وأنه إذا كان التدريب الذي تلقاه من عمه قاسيا إلا أن مواجهة الصليبيين في تلك الظروف المريرة كان أمرا مختلفا للغاية. وقد عانى صلاح الدين كثيرا بسبب ندرة المؤن طيلة حصاره لمدة أربعة أشهر بالإسكندرية.

المعدن الأصيل عند الأزمات

وصلت أخبار حصار صلاح الدين في الإسكندرية إلى نور الدين محمود. ومن منطلق حرصه على إخراج الجند المسلمين من تلك المحنة، سار بجيوشه نحو بنياس لاستعادتها من جديد بعد أن كان الصليبيون قد استولوا عليها مرة أخرى. بل إنه بدأ يهدد إمارات أنطاكيا وبيت المقدس في وضح النهار ويعد العدة للحصول عليها. ومن جهة، بدأت أخبار انتصارات نور الدين محمود تصل إلى أمورى، ومن جهة أخرى ظهر المعدن الحقيقى لشعب الإسكندرية المسلم الذي كان يئن تحت حكم الفاطميين ولكن ما إن وجد القائد المسلم ذا الفطرة السليمة والمتمثل في شخص صلاح الدين الأيوبي إلا أعلن عن تكاتفه مع الجند المسلمين وأخذ يمدهم

بالمؤن حتى إن الأب كان يرى أبناءه يعانون من شدة الجوع فيطعمهم بأقل القليل ويتبرع بالجزء الأكبر للجيش النورى. وكان تكاتف أهل الإسكندرية مع صلاح الدين وجنوده بغرض عدم تسليم مدينتهم للصليبيين، وقد شهد ذلك التكاتف السكندرى أصنافاً عديدة من العطاء، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن الشعب الإسلامي لايموت، فمن الجائز أن يغفوولكن لا بد له من النهضة على صحوة قوية إن شاء الله، ويبرز المارد الإسلامي من جديد. أما عن صلاح الدين فقد تحمل كل العبء والمعاناة حتى استطاع أسد الدين أن يخترق الحصار ويصل إليه في الإسكندرية.

جناحي الأمة

وبدأت المفاوضات في الإسكندرية بين أسد الدين وأمورى وانتهت على أن يترك مصر كل من الجيشين النورى والصليبي. وفعلا، انسحب الجيش بقيادة أسد الدين، ولكن أمورى نكث العهد ولم يترك الإسكندرية بل إنه فرض على مصر جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار، ووقعت مصر تحت الانتداب الصليبي، وعين خبراء اقتصاديين وسياسيين لمساعدة شاور في إدارة شئون مصر، وترك حامية صغيرة في القاهرة.

وعاد الجيش النورى إلى الشام دون تحصيل الأموال التي وعد بها ثلاث مرات. وبقى شاور وزيرا على مصر، كما بقيت مصر تحت الانتداب الصليبي. وكان أسد الدين شيركوه قد تألم كثيرا لمفارقته مصر، في حين أن صلاح الدين قد سعد بعودة الجيش سالما إلى الشام. إزاء ذلك التناقض في الآراء دار الحوار التالي بين أسد الدين وابن أخيه:

"(صلاح الدين) : أمازلت تذكر مصر يا عماه؟ لكأنى ألمس فيك عشقاً لها.

(أسد الدين) : إن مصر والشام بالنسبة لنا جناحان ولا قيام للأمة بدونهما كالطائر الذي لا يطير بجناح دون الآخر، ولا نصر بغير مصر فإن فيها خير أجناد الأرض".

ولم يكن الرد الذي ألقاه أسد الدين على ابن أخيه سوى تعبير عن وضوح رؤيته لما يهدف إليه على المدى القريب في دنياه وعلى المدى البعيد في آخرته.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران] .

عند عودتهما إلى الشام في عام ٥٦٢ هجرية، صار أسد الدين أميرا لحمص بينما عين صلاح الدين مديرا لأمن دمشق. وبعدها بعامين، أي في عام ٥٦٤ حدثت أزمة كبيرة بمصر حيث بدأ أموري يطمع في الاستئثار بمصر. ويرجع ذلك إلى تعرفه على ثراء هذا البلد، لاسيما إن الصليبيين لم يأتوا إلى الشرق إلا طمعا في ثرواته وليس بدافع الدين كما كانوا يزعمون. وفى المرتين السابقتين، كان أموري يدعى من قبل شاور أو الخليفة العاضد، وإنما هذه المرة كان تحركه إلى مصر بناء على رغبته الشخصية في جعلها الإمارة الصليبية الرابعة بعد أنطاكيا وطرابلس وبيت المقدس. ولما أحس شاور بذلك، أرسل يطلب النجدة من نور الدين رغم ما أبداه من غدر في تعاهداته الثلاثة السابقة. ولكن نور الدين بدأ بالرفض خوفا أن تكون هذه حيلة من شاور للقضاء على الجيش النورى. فما لبثت أن جاءت رسالة من الخليفة العاضد إلى نور الدين محمود مؤداها "أن أنقذ نساء مصر من أن تنتهك حرماتها". وكانت الرسالة مذيلة بدماء امرأة قتلت وشعر امرأة يخشى أن تنتهك.

فما كان من نور الدين محمود إلا أن طلب من صلاح الدين أن يخرج من دمشق قاصدا حمص ليدعو عمه أسد الدين شيركوه. ولكن هذا الأخير كان قد تلقى الأخبار فالتقى مع صلاح الدين على أطراف دمشق، فعادا سويا. وعقد مجلس حرب اجتمع فيه القادة جميعا برئاسة نور الدين محمود وبحضور أسد الدين

شيركوه ونجم الدين أيوب وصلاح الدين الأيوبي. وطلب أسد الدين أن يكون صلاح الدين الذراع الأيمن له في المعركة المنتظرة. وتحدث المفاجأة عندما يرفض صلاح الدين الذهاب إلى مصر. وعندها دار حوار قصير بين المعنيين الثلاثة، نور الدين وأسد الدين وصلاح الدين، تبادلوا فيه الكلمات التالية:

"(أسد الدين) : مولاي نور الدين، ترسم له!

(نور الدين) : لم لا تريد الذهاب إلى مصر يا صلاح الدين؟

(صلاح الدين) : مولاي، لولا تحرجي منك ما قلت ذلك، ولكنى أحتاج إلى فرس وعدة حرب.

(نور الدين) : الأمر أبسط من ذلك... درعي درعك، وسيفي سيفك، وفرسي فرسك".

بعد أن طلب أسد الدين من نور الدين محمود أن يصدر مرسوماً رسمياً بتكليف صلاح الدين بالذهاب إلى مصر، قدم صلاح الدين عذراً ضعيفاً مثل تلك الأعذار التي نقدمها أحيانا عند التأخر عن الصلاة أو عدم الانتظام فيها. وفى الواقع فإن الإنسان منا يتردد في الإقدام على نداء الدين في الفترة التي تسبق تسليم أمره كله لله عز وجل. وقد اتخذ كل من والد ووالدة صلاح الدين موقفاً حاسماً إزاء تردد ابنهما في الخروج للجهاد إلى مصر وقالا له: "يا صلاح الدين، إن الأحداث الكبار هي التي تصنع الأحداث العظام، وإن المحن الشديدة هي التي تشحذ الهمم العظيمة. والله ما ربيناك لدنيا، إنما ربيناك للشهادة". وبعد صلاة الفجر، دخل نجم الدين أيوب على ابنه في حجرته وقال له:" يا يوسف، اختر ما شئت ولكن في الصباح تحمل سيفك وتحمل درعك وتترجل على فرسك وتسير مع عمك فلا أشاهدك بعد اليوم في دمشق". وبناء عليه، لم يجد صلاح الدين بدا إلا أن ينطلق مع أسد الدين ليدخلا مصر سويا.

ولا أحسن من أن نختم هذا الفصل بدعوة إلى أن يحدد كل منا هدفه في الحياة، فلا يجوز للمسلم أن يعيش سنين عمره بلا هدف. فليكتب كل منا أولويات أهدافه ويحولها إلى مشاريع تتكون من خطوات يتعين تنفيذها. وعلى سبيل المثال، كلنا يريد دخول الجنة، فليحدد كل فرد فينا الخطوات التي سوف ينفذها حتى يجرؤ على طلب الجنة من الله سبحانه وتعالى. وهذا هو ما كان يفعله أسد الدين شيركوه، إذ كانت مهمته في الحياة فتح مصر. وبالفعل، ما إن فتحت مصر إلا ويموت أسد الدين شيركوه ويتسلم صلاح الدين الراية من بعده.

***

obeikandl.com

obeikandl.com